القومية ، تلك الفكرة التي كان ساطع الحصري قد طرحها بقوة وأسلوب مقنع ، مستوحيا اياها من قراءاته في نشوء الفكرة القومية بأوربا القرن التاسع عشر . ويجب ألا ننسى هنا الخلفية الاجتماعية لهؤلاء المفكرين ، اذ كانوا بلا استثناء تقريبا ينتمون الى الطبقة البورجوازية . لذا لم يكن من المستغرب أن يكون المنطلق ليبراليا والحديث يدور عن السياسة قبل الاقتصاد ، وأحيانا بمعزل عن الاقتصاد .

وكانت القناعة العامةتكمن في فكرة الوحدة العربية الشاملة . ففي هذه الوحدة كان البلسم الشافي لجميع الجراح ، برأي هؤلاء المفكرين . ولكن الفرق بين جيل الخمسينات وجيل الثلاثينات ، ان الاول كان يريدها وحدة شعبية ديمقراطية ، بينما الجيل السابق كان يضع أمله في تحقيق الوحدة على أيدي الملوك والامراء العرب .

في هذه الفكرة وقعت الانقلابات العسكرية في سوريا ، وبدأت شمس الناصرية بالبزوغ اثر صفقة الاسلحة التشيكية . وكانت هذه الصفقة بمثابة دقة العربي على باب المعسكر الاشتراكي . فقد وقف العربي أمام هذا الباب مسلحا بشعارات الحياد الايجابي وعدم الانحياز . وفي نهاية الخمسينات ، أضاف الى قائمته شعار رفض المبادىء المستوردة . (المبادىء وليس الايديولوجيات ، فالاخيرة لم يحن دورها بعد على المسرح العربي) وفي غمرة الحماس العربي بالفجر الذهبي الجديد ، نسي الكثيرون حقيقة بديهية ، وهي أن الأمة التي توقفت عن الانتاج الفكري منذ قرون لا تملك خيارا غير الاستيراد . ولكن الطريق الى الجحيم معبد بالنيات الحسنة ، كما يقول المثل المعروف ، ولذا بقي التركيز على الفكرة القومية الى أن كاد التفكير الأممي يبتلع العراق في عهد عبد الكريم قاسم . وقد تعلم حزب البعث من هذا الدرس ، وأخذ يشدد على الجانب الاقتصادي في برنامجه ، بينما تأخرت حركة القوميين العرب في الاستجابة للتحدي الاجتماعي ـ الاقتصادي ، وربما رجع ذلك الى هوية قادتها الفلسطينية ، بكل ما تعنيه هذه الهوية من انشغال بالقضية دون سواها . ان المؤلف يستشهد بعبارة مشهورة للدكتور جورج حبش: لقد قتلوا أبناء شعبنا وطردونا من بيوتنا ومدننا وأرضنا ، وفي الطريق من اللد الى الرملة شاهدت الاطفال والشبان والشيوخ يموتون . فماذا ستفعل أنت اذا رأيت ذلك كله ؟ انك لا تستطيع الا ان تصبح ثوريا وتناضل من أجل القضية .

تأسست الحركة في البداية كرابطة طلابية وذلك في مقر العروة الوثقى ببيروت ، وكان الاعضاء المؤسسون هم الدكتور جورج حبش ، والدكتور وديع حداد (فلسطين) وهاني الهندي (سوريا) والدكتور أحمد الخطيب (الكويت) والمرحوم باسل الكبيسي (العراق) (علما بأن المؤلف يغفل دور الكبيسي كعضو مؤسس) وفي أوائل عام ١٩٥٥ فصلت الجامعة الاميركية سبعة عشر طالبا من طلابها (بينهم الكبيسي) وذلك لاشتراكهم في المظاهرات ضد حلف بغداد، كما حلت جمعية العروة الوثقى . وكنا نتمنى أن يتحدث المؤلف بتفصيل أكثر عن هذه الحادثة الشهيرة التي كشفت حقيقة عواطف تلك الجامعة نحو فكرة القومية العربية . ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت هذه الجامعة تشجع الفكرة القومية كبديل عن التفكير الاسلامي . وواصلت تشجيعها لهذه الفكرة في أواسط هذا القرن اذ أرادت من القومية أن تصبح حاجزا أمام الماركسية . ولكن الزمام أفلت من يدها عندما وقف القوميون العرب ضد الامبريالية الغربية ، فكشفت عن وجهها الحقيقي حينما فصلت الطلاب بالجملة .

ان المؤلف يتناول هذه الحادثة في أربعة سطور فقط .

ومع بداية الستينات ، ازداد توسع الحركة في الوطن العربي ، وخاصة في الاردن والعراق والكويت . الا ان الحركة أخفقت في زرع جذور لها في البحرين والمملكة العربية السعودية ، كما كان واضحا ان تنظيمها الداخلي لم يكن متماسكا كل التماسك . وفي المعركة ضد التحالف القاسمي ـ الشيوعي في العراق ، كان حزب البعث هو الذي قاد القوميين الى النصر ، بينما لعبت الحركة دور الشريك الاصغر . أما